



باستثناء أحداث الطبيعة، ما من فعل أساسي وذي شأن يتم في عالمنا، إلا ويكون للولايات المتحدة الأمريكية يدٌ فيه، ترتيباً، تأثيراً، توجيهياً أو جني ثمار .

خلال السبع سنوات من الكارثة السورية، كان الغياب الأميركي أشد وقعاً من الحضور. في السنة الأخيرة من ولاية الرئيس باراك أوباما والسنة الأولى من ولاية الرئيس دونالد ترامب، كان السوريون، وكل منخرط في الشأن السوري، بانتظار تبلور السياسة الأميركية تجاه القضية السورية، رفع السوريون توقعاتهم على إيقاع خط أوباما الأحمر؛ وتصوروا أنه سيضع حدأً لمساتهم، وإن بذلك الخط يتحول مقدمة مأساة أكبر، تمهد إلى فتح عداد الفيتو الروسي، وتفلت نظام الأسد من أي عقاب دولي. عاد أمل كسر استعصاء القضية بانتظار ولاية أوباما جديدة. تأتي الولاية وتفاقم المأساة، عندما تحدد إدارة أوباما لنفسها ثلاثة توجهات بخصوص سوريا، تمثلت في النأي بالنفس عن القضية الأساسية، وفي محاربة "داعش"، ووضع الملف في عهدة الروس .

شكلت أميركا تحالفاً لمحاربة "داعش" في العراق. ومضى أكثر من عام، قبل أن تبدأ إدارة أوباما تضيف سوريا ميداناً لمحاربة "داعش". وكان الاستبشار كبيراً عندما بدأ أوباما يقول: "محاربة داعش في العراق وسوريا"، لكنه كان يرافق ذلك بالنأي بالنفس عن القضية السورية الأساسية، وهنا أتى تعهيد تلك القضية للروس. وكم كان ذلك مواتياً للرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، المثقل بأعباء القرم وأوكرانيا والضغط الاقتصادي؛ فاعتبر أن وضع اليد على سوريا سيحولها ورقةً يساوم عليها ملفاته التالية. واستلزم ذلك تدخلاً عسكرياً روسيّاً، جعل بوتين الحاكم بأمره في سوريا؛ ولكن فقط في سوريا "التابعة نظرياً للأسد وإيران"، أما في الثلث الشمالي الشرقي من سوريا حيث الوجود الداعشي الأكبر، والذي قال بوتين إنه يحاربه، فتبين أن 3% فقط من أهداف طائراته كان لداعش (قصة استلام تدمر وتسلیمها معروفة) .

يسارع بوتين إلى إعلان "نصره" من حميميم وبحضور الأسد، ويدعو إلى مؤتمر حوار ومصالحة للسوريين، بعد أن فشل في تحويل "أستانا" محطة سياسية، ليتبين أن من عهد له بالملف السوري كان قد بلغه. وبعد أن ذكره بأن النظام الذي يحميه لا يزال يستخدم الأسلحة الكيميائية، ولا بد أن يعاقبه على ذلك بتصفيف مصدر الكيميائي في مطار الشعيرات، وبعد أن ورطه في استخدام "الفيفتو" مرات في مجلس الأمن، تأتي التصريحات الأميركية بأن سياسة الولايات المتحدة تجاه المسألة السورية قد تبلورت، وأن أميركا تضع يدها على الثالث المفيد، مياهاً وثروة باطنية وزراعة في سوريا، وتعمل على إنشاء جيش من 30 ألف مقاتل، وأنها باقية، حتى يكون هناك حل سياسي في سوريا، وحتى يتم الانتقال السياسي المنصوص عليه في القرارات الدولية. ولتأتي أميركا، ومعها أربع دول معنية بالقضية السورية بما سمته "لا ورقة" عشية مؤتمر سوتشي؛ لتقول لبوتين إن خطوطه البائسة في إيجاد "حل سياسي" في سوريا خليبة.

والآن، ما معنى أن تفعل أميركا ذلك كله، وماذا تريد واشنطن من موسكو في سوريا؛ ولماذا عهدت لها بالملف السوري، وهل تختلف السياسة الأميركية تجاه قضايا حساسة عالمية، بتبدل رؤسائهما، أم أن المنظومة الأميركية الأعلى المتحكمة، بما يدور في عالمنا، صغيراً كان أم كبيراً، هي المحرك لتلك القوة الأميركية تفرداً بمصير عالمنا، وغير مسموح بتعدد القطبية التي تفلسف بها بوتين؟ أمام هذا السؤال الواقع الاستراتيجي الكبير، يخلص المرء إلى أن وضع اليد الأميركية على القطعة الأهم من الجغرافيا السورية، ليس لمائها وغازها ونفطها وزراعتها، بل لأغراضٍ تتقدمها رسالة لموسكو بأن هناك مقرراً أساسياً لمصير عالمنا، صغير أم كبير.

إنه تلقين درس لروسيا بوتين أن القطب الواحد لا يزال هناك، والحلم الروسي في عودة الإمبراطورية ليس إلا وهمًا؛ إنه تثبتت مقولهأً أو باماً إن روسيا ليست إلا دولة إقليمية كبيرة.

من هنا، يمكن القول إن ذلك التأليب السياسي على ترامب، والتحريض الإعلامي عليه، وفزعه التدخل الروسي في انتخابه، ليست إلا أدوات لاستئثاره وتحريضه، لوضع حد للروس، وإعادة بوتين إلى حجمه الحقيقي.

إضافة إلى هذا الهدف الكبير الذي أجزته على الحالة السورية، باستخدام بوتين قفازاً أميركياً غير مرئي، فإن الولايات المتحدة أنجزت أيضاً أهدافاً ثانية، لا تقل وزناً عن هدفها الأكبر، فهي أراحت إسرائيل سنوات تساوي السنوات التي أراحتها خلال حكم المنظومة الأسدية بهدوء جبهتها الشمالية الشرقية؛ وذلك يجعل سوريا حالةً لا تقوم لها قائمة عقوداً. من جانب آخر، كشفت القوة العسكرية الروسية الغاشمة إيران؛ وعرّرت مخططاتها الطامحة، لكن العاجزة عن التمدد، إلا في ظل يد باطشة، كاليد الروسية. وهنا فضحت أميركا الجهتين معاً.

ويبقى آخر اهتمامات لعب الكبار مصير الشعوب وعداياتها، وتبقى التفافات بسيطة، وتتوافق شفوياً كفيل بحقن الدماء ولملة الجراح؛ فمتى تتم تلك الالتفافات التي تعيد أهل سوريا إلى سكة الحياة؟

المصادر:

العربي الجديد